ثوروا على النفس
قبل أن تثور

للاستاذ محمود محمد عماره
المدرس بمعهد دسوق

.. قرأت مقال الكاتب الصوفى الملهم الاستاذ طه عبد الباقى سرور الذى ينادى فيه بالاخذ بنظام الفتوة الصوفية حتى نخلق جيلا فتيا قويا مؤمنا .. وقد أوحى الى المقال بهذه الافكار ..

الصراع بين النفس والقلب .. قديم قدم الحياة نفسها .
وكل منهما يريد أن يقود الانسان ليكون فى خدمة أغراضه وأمانيه

النفس الأمارة بالسوء تجذبك الى الارض .. بما تزينه لك من شهوات وأطماع .. والقلب يصعد بك فى السماء ليصلك بالله .. لتتحسس بروحك مدارج الكمال والجمال

وللقلب جنود .. وللنفس جنود .. أما جنود القلب فهى نور يقذفه الله فى قلوب المصطفين من عباده .. فاذا هم قوة خلاقة بانيه .. تعمر الأرض .. وتصوغ الحضارات .. وأما جنود النفس فهى : شح مطاع .. وهوى متبع .. واعجاب المرء بنفسه .. ومتى أحيط الانسان بهذا الثالوث .. البغيض .. اهتزت فى ناظره القيم والفضائل ..

فاذا أجهزة الارسال معطلة : فلا ينضح كيانه بكلمة رطبة تهدى حائرا .. أو فكرة نيرة تبهج الحياة ..

وتتعطل فيه أيضا أجهزة الاستقبال .. فلا يؤثر فيه وعظ .. ولا ينصاع لمرشد أمين ..

واذا رأيت ثم رأيت النفس وقد شهرت أسلحة الرغبات .. وسيطرت بهذه الاسلحة على جو المعركة .. والقلب هناك يستنجد .. ويستنهض الارادة لتنطلق .. وترسلها صيحة مدوية تقطع على تلك الرغبات طريقها .. بيد أنها منكمشة عاجزة أمام هذا الطوفان .. لاتملك من أمر الانسان شيئا ..

ونحن مطالبون والحالة هذه ان نشحذ الهمم .. ونوقظ ضمائر المؤمنين .. وأن نفتح أعيننا جيدا .. لنرى ألاعيب النفس .. ودورها فى حياة الانسان ..

ومن هذه المعرفة نستطيع أن ننتصر بقلوبنا عليها .. فتصفو لنا الحياة ..

والانتصار على النفس مطمح بعيد المنال .. وما بعث النبيون وأرسل المرسلون الا من أجل هذه النفس .. وتقليم أظافرها .. وتسخير قواها لصالح البشر .. بدل أن تندفع قوة عمياء مدمرة .. لا تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم .

وليس من الغريب أن يكون انتصارك على عدوك أيسر من انتصارك على نفسك الأمارة هذه !!

لأنك تستطيع أن تحاور عدوك وتداوره .. متأكدا من عداوته لك ..

أما نفسك .. فهي ترتدي لك ثوب الصديق .. فتبدو ناصحة أمينة .. فتزين لك شهواتها .. وتقدمها في صورة تقبلها أنت وترتاح اليها ..

تزين لك التهور قائلة :
انه شجاعة !!
وتريك ايذاء الناس « فتوه .. والمداهنة .. سياسة !
والبلادة .. رزانة ! والثرثرة .. بلاغة !! واذا بك .. من حيث لا تدري .. في هوة بعيدة الغور .. ليس لها قرار !

وهنا أذكر الحكمة القائلة : كل شيء يعوزنا اذا ما اعوزتنا نفوسنا ..

فاذا ماتمردت النفس .. وولغت في حمأة الخطايا .. واذا ما أفلت زمامها وشلت الارادة أمام قوة اندفاعها .. سنخسر كل شيء في حياتنا .. وسيفصلنا عن الفضائل برزخ كبير ! لن نحس لذة الصدق .. لأنها تنهى عنه ..

لن نتذوق طعم الصراحة لأنها ليست لغتها ..
لن نشعر بدافع الكرم .. لأنها أحضرت الشح ..
لن نعتنق مبدأ الاتحاد .. فهي تفرق حتى بين الأخ وأخيه .. وصاحبته وبنيه ..

لن نتفيأ ظل الحب .. لأنها لا تنمو الا في لهيب الاحقاد .. وتصور معي أيها القارىء العزيز مجتمعا ثارت فيه النفس .. فقضت على تلك القيم جميعا !؟ ألا يستحق منا عطفا ؟!!

ألا يستحق منا ان ندق أجراس اليقظة في فجاج الأرض جميعا .. لتصحوا القلوب من غفوتها .. وتقطع على شهوات النفس شعابها ؟!!

ان الصواريخ الموجهة عبر السماوات وحول الشمس والقمر .. لن تستطيع أن تفجر في قلوب البشر ينابيع الرضا .. والسعادة .. وأن تدفعهم الى غد أسعد ..

فاذا ما نافس الانسان الطيور وهزمها فاخترع الصواريخ .. ونافس الاسماك .. فأنشأ الغواصات .. فيجب عليه أن يثور ليهزم نفسه أولا ! .. ومن هذه النقطة يستطيع أن ينطلق فى أمان !!

ان مشكلة الانسان تتلخص كما قيل فى أنه يتقدم فى أسباب قدرته .. أكثر مما يتقدم فى أسباب حكمته : فهو قد أغلق الباب فى وجه الغرائز التى تزرع فى القلوب أزاهير الحب والسلام ..

وفى الوقت نفسه .. فتحه على مصراعيه .. وأطلق العنان أمام غرائز السيطرة والطموح .. هذا الطموح الذى يمتطى ظهر القوة العنيفة الساحقة .. ليوجه القنابل . .والغازات لتحصد الارواح البريئة .. ثم اذا ما هتفت قلوب رحيمة : الذرة فى خدمة السلام .. تتقدم الحكمة .. يتقدم القلب الحانى .. ليمسك بالمطية الخطرة .. فتشرد .. وتتمرد ..

وهيهات أن يصل بها الى المرفأ السعيد !!

وهنا أقرر مع جان جاك روسو : ان العلم والمدنية .سبب فى تدهور الأخلاق ..

وحيث فشل العلم .. وعجزت المدنية عن حل مشكلات العالم ... وحماية السلام .. فما على الدين الا أن يتقدم ليمسك بالزمام .. ويقود القافلة .. الى الله .

وهنا التقى مع الكاتب الكبير الأستاذ طه عبد الباقى سرور فى ضرورة النظام الصوفى .. وهو « الفتوة الصوفية » هذا النظام الرائع .. الذى بنى أمما .. وصاغ حضارات .. وكان ثورة على النفس الامارة وانتصارا للقلب .. للملكات التى خلق الانسان مزودا بها ..

ليس فى الوقت فراغ فاعتزم ..
واملأ الدنيا بأعمال شريفة ..
أنت نور الأرض تهدى أهلها ..
لن يرى غيرك فى الأرض خليفة .

فلتتعانق قلوبنا .. ونمضى معا .. على الطريق .. نتخطى رغبات هذه النفوس فى عزم واصرار .. وصدق الاستاذ طه سرور ، اذ يملأ القلوب مضاء وذكاء .. ويفتح أمامها باب الأمل فيقول :

« هنا وهناك .. فى الأرض المباركة حيث رفت أجنحة الملائكة .. ورفرفت أعلام الديانات والرسالات .. تتلألأ أضواء فجر .. وتشع اشراقات بعث .. وتتجمع قوى .. وتتدفق ثورات .. عليها من رضاء الله توفيق .. وفيها من هدى النبوة بريق .. لتصنع من جديد دعوة ورسالة .. ونهضة مختارة .. يحمل أعلامها ويشعل مصابيحها .. أحفاد الرسل .. وورثة الأنبياء » ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .